

أهمية المصادر الأجنبية في التعريف بالعمران الصحراوي بمنطقة الأغواط

The importance of foreign sources in defining desert urbanism in the Laghouat region

فاطمة دجاج

جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر) f.djadj@lagh-univ.dz

تاريخ الإرسال: 2025/02/12 ؛ تاريخ القبول: 2025/03/17 ؛ تاريخ النشر: 2025/06/01

الملخص باللغة العربية:

تعتبر كتب الرحالة والعسكريين الفرنسيين في القرن التاسع عشر الميلادي مصادر بالغة الأهمية للباحثين المهتمين بتاريخ منطقة الأغواط. فهي تزخر بانطباعات وملاحظات عميقة ومفصلة حول مختلف جوانب الحياة في هذه المنطقة، كما تنفرد بتسجيل دقيق للعديد من التفاصيل الصغيرة والهامة. إلى جانب ذلك تناولت هذه الكتابات مواضيع متنوعة وقدمت معلومات قيمة حول الخصائص المعمارية للمنطقة، التي احتلت مكانة بارزة في تقارير هؤلاء الرحالة والعسكريين. الذين درسوا مخططات القصور في المنطقة وفصلوا في المنشآت المعمارية المدنية والدينية والعسكرية، إضافة إلى مواضيع أخرى تتعلق بالعمران بشكل عام ومع ذلك ولتحقيق استفادة علمية حقيقية من هذه النصوص، يتعين على الباحث إخضاعها للنقد التاريخي الدقيق. فهذه المصادر ليست خالية من العيوب؛ إذ كانت كتبت في الأساس لخدمة الأهداف الاستعمارية وتسهيل مهمتها. كما أنها قد تحتوي على جانب من الخيال، إلى جانب هيمنة الطابع الشخصي والانطباعات الذاتية على بعضها، بل وأحياناً تظهر فيها ملامح من التعصب أو الاستعلاء تجاه العنصر الجزائري.

الكلمات المفتاحية: الأغواط؛ العمارة؛ العمران؛ الرحالة؛ العسكريين؛ القرن التاسع عشر.

Abstract: The books of French travelers and soldiers in the nineteenth century are considered very important sources for researchers interested in the history of the Laghouat region. They are full of deep and detailed impressions and observations about various aspects of life in this region, and they are unique in their

accurate recording of many small and important details. In addition, these writings dealt with various topics and provided valuable information about the architectural characteristics of the region, which occupied a prominent place in the reports of these travelers and soldiers. They studied the plans of the palaces in the region and analyzed the civil, religious and military architectural structures, in addition to other topics related to urban planning in general. However, to achieve real scientific benefit from these texts, the researcher must subject them to accurate historical criticism. These sources are not without flaws; they were written primarily to serve colonial goals and facilitate their mission. They may also contain an aspect of imagination, in addition to the dominance of personal character and subjective impressions in some of them, and sometimes they show features of fanaticism or arrogance

Keywords: Laghouat; Architecture; Urbanism; Travelers; Military; Nineteenth century.

مقدمة:

تمثل العمارة الإنتاج المادي لثقافة أي مجتمع، فهي تعكس هويته، احتياجاته المتنوعة، ومدى تفاعله مع بيئته الجغرافية المحيط به. كما أنها تعبر عن طبيعة الحياة الاقتصادية والاجتماعية لذلك المجتمع. وما يلاحظ على العمارة في منطقة الأغواط تجاوبها مع الخصائص الجغرافية المميزة لها، مثل ارتفاع درجات الحرارة وهبوب الرياح الحارة، وهو ما أدى إلى تصميمها بما يتناسب مع هذه البيئة، لتوفير ظروف معيشية ملائمة للسكان. حيث يعتمد البناء على المواد الأولية المحلية ويتمشى مع القيم والأخلاق الإسلامية، كالتركيز على الحفاظ على أسرار البيت ومبادئ الحشمة. وقد تمكن سكان الأغواط من بناء قصور تضم مرافق ضرورية تلبي مختلف احتياجاتهم، حسب مكانتهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية خلال القرن التاسع عشر، وقد أبدى الرحالة والعسكريون الفرنسيون اهتماماً كبيراً بموضوع العمارة في منطقة الأغواط، حيث قدموا معلومات تفصيلية حول هذه القصور. هذه المداخل جاءت لتحليل تلك المصادر بشكل نقدي بهدف الكشف عن انطباعاتهم الإيجابية والسلبية حول عمارة القصور في الأغواط. بناءً على ذلك، يمكن طرح الإشكالية التالية: كيف وصف الرحالة والعسكريون الفرنسيون عمران منطقة الأغواط خلال القرن التاسع عشر؟

وهذا ما يدفع لطرح التساؤلات التالية:

-هل استطاع العسكريون والرحالة الأجانب تقديم صورة دقيقة وموضوعية عن العمران بالمنطقة؟

-كيف يمكن للباحثين اليوم استثمار كتاباتهم في ظل النقص شبه التام للمصادر المحلية التي توثق لهذا الموضوع؟

1-أولا: قراءة نقدية لمؤلفات العسكريين للعمران الصحراوي بمنطقة الأغواط خلال ق19م:

تختلف قيمة المعلومات التي تقدمها مؤلفات العسكريين الفرنسيين حول العمران بمنطقة الأغواط، وهؤلاء اهتموا بعمارة القصور في إطار مهماتهم العسكرية، ولم يخصصوا مؤلفات بعينها حول الموضوع، ومع ذلك احتوت كتاباتهم على فصول هامة، تتناول العمران بصفة عامة، بحيث يجد الباحث نفسه مضطرا للعودة اليها لما تحتويه من تفاصيل. ومن بين القادة العسكريون الذين تركوا تقارير ومذكرات ومؤلفات تعتبر مصادر ضرورية لا غنى للباحث عنها، لما تضمنته من معلومات متنوعة ومفصلة حول مختلف جوانب الحياة في الصحراء الجزائرية، نجد الجنرال دوماس(أنظر التعليق رقم1) الذي عاش مدة طويلة في الصحراء، وخلال قيامه بواجبه عمل على جمع معلومات دقيقة عن المجتمع الجزائري، الذي تعرف عنه عن كثب من خلال الاحتكاك المباشر بحياة السكان، وألف العديد من المؤلفات حولها بعد أن سبر أغوارها، وفهم مجتمعاتها بعمق، لهذا احتوت كتاباته على معلومات غزيرة وهامة حول مختلف جوانب حياة المجتمع الجزائري.

وقد خصص الجنرال دوماس جزء هام من كتابه الصحراء الجزائرية لمنطقة الأغواط، قدم من خلاله دراسة جغرافية وسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية لها، والتي تتميز بالتفصيل، وذلك خلال رحلته الاستكشافية لهذه المناطق الصحراوية قصد احتلالها، وقدم معلومات تتعلق بالجانب العمراني لمدينة الأغواط والقصور المحيطة بها ومن بين ما ركز عليه مايلي:

-المسافة الفاصلة بين القصور مثلا بين أن تاجموت تقع على بعد ثمانية وعشرين كيلومتر شرق عين ماضي، وأربعون كيلومتر شمال الأغواط أما قصر الحويطة فانه يقع على بعد

عشرين كيلومتر من الجنوب الشرقي لعين ماضي، وثمانية وأربعون كيلومتر غرب الأغواط. وبالنسبة لقصر الحيران فانه مشيد على بعد عشرين أو أربع وعشرين كيلومتر بالجنوب الشرقي للأغواط. وأبعد هذه القصور عن الأغواط هو قصر عين ماضي الذي تفصل بينه وبين الأغواط ستون كيلومتر غربا. وذكر أن قصر العسافية يقع على سهل قريب من الأغواط دون أن يحدد المسافة بالضبط بينهما كما فعل مع القصور السابقة.

طبيعة الموقع الجغرافي الذي شيدت عليه القصور، فالأغواط شيدت على المنحدرات الشمالية والجنوبية لجبل صغير، ويقصد بذلك جبل تيزقرارين. أما قصري تاجموت والعسافية فيقعان على سهل. بينما بني قصر الحويطة على منحدر. أما قصر عين ماضي فمشيد على ربوة صغيرة.

تحدث عن شبكة المياه بهذه القصور المتمثلة في وادي مزي وروافده الذي يمر بهذه القصور، ويشكل مصدر الحياة فيها، إضافة الى العيون والآبار والينابيع التي توفر المياه لسكان القصور.

قدم إحصاءات حول تعداد المنازل في كل قصر، منها أن مدينة الأغواط تتكون من سبع مئة الى ثمانمائة منزل، يليها قصر عين ماضي بمائة وخمسين الى مئتي منزل، أما قصر الحيران فيضم مائة وعشرين منزلا. أما قصر تاجموت فيحتوي على مئة منزل، بينما يتراوح عدد منازل الحويطة بين الأربعين والخمسين منزلا. وأقل هذه القصور منازلها هو قصر العسافية حيث يقدر عددها بثلاثون منزلا فقط (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013، الصفحات 38-54)

تناول أيضا تخطيط المنازل والشوارع في هذه القصور، وغالبا بدت له سيئة التخطيط والبناء، وذكر أن البعض منها فقط مطلي باللون الأبيض كمنازل الوجهاء والمساجد وأضرحة الأولياء والمرابطين، أما بقية المنازل فمطلية باللون الرمادي من الخارج، ومبيضة من الداخل فقط، وتتميز بكونها متلاصقة ببعضها البعض، وأغلبية المنازل ذات طابق أرضي، باستثناء منازل الوجهاء كمنازل التجاني ومنزل أحمد بن سالم (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013، الصفحات 39-49) وغالبية الشوارع ضيقة، فذكر أن الأزقة في عين ماضي جد ضيقة، حتى أنك لا تستطيع المرور منها على ظهر حصان. (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013، صفحة 56)

تكلم عن العمارة الدينية المتمثل في المساجد التي تتوسط القصور عادة، وأضرحة المرابطين التي تقع عادة على ربوة عالية نوعا ما بالقرب من القصر، وكأن القصد منها هو حماية القصور وسكانتها (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013، الصفحات 49-56)

ركز كثيرا على وصف العمارة العسكرية بالقصور، وقدم دراسة مفصلة حول الأسوار التي تحيط بها وتحميها، والمواد التي بنيت منها، وكذا الأبراج والأبواب الضخمة التي تخترق الأسوار، إضافة إلى الأسوار المحيطة بالحدائق والتي تدعم جدران الأسوار، وبين أن بعض الأسوار قوية وصلبة وجيدة البناء، وبعضها هشّة أو مدمرة بسبب الصراع على السلطة الذي شهدته قصور الأغواط قبل الاحتلال (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013، الصفحات 38-85)

من الجوانب المتعلقة بالعمران والتي ركز عليها الكاتب الأنشطة الاقتصادية التي يمارسها سكان القصور، منها النشاط الزراعي في الواحات، حيث البساتين والحدائق الغناء التي يعتني بها السكان، وتنمو بها مختلف أنواع الأشجار المثمرة في مقدمتها أشجار النخيل، التي تنمو في ظلها أشجار الفاكهة المختلفة، إضافة إلى الخضروات. وتحدث عن أنظمة السقي المختلفة، وكيفية توزيع المياه بين الحدائق. كما تحتوي القصور على مخازن خاصة تستعملها القبائل البدوية التي تتعامل معها، لتخزين مؤنها خلال تنقلاتها الموسمية بين التل والصحراء، حيث تتحول القصور خلالها إلى مراكز تجارية، وتتم مبادلات هامة بين سكان القصور والقبائل البدوية، وهو ما يوضح التكامل والتبادل بين البدو والقصوريين. كما تحدث عن الأسواق بمدينة الأغواط والقبائل التي تقصدها، والمنتجات التي يتبادلونها، بحيث تصل الأسواق منتجات الشمال والجنوب، بفضل حركة القبائل الموسمية بين التل والصحراء. والنشاط الآخر الذي ذكره يتمثل في الحرف اليدوية التي تمارسها نساء القصور، أهمها حرفة النسيج، وعرف بالتفصيل بالحرف المنتشرة بمدينة الأغواط، وسيطرة اليهود المقيمين بها على بعضها، خاصة الصياغة والدباغة، يمكن للباحث أن يستفيد من هذه التفاصيل في الجانب الاقتصادي. (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013، الصفحات 38-41)

اهتم أيضا بالجانب الاجتماعي، فاحتوى الكتاب على معلومات هامة ومفصلة حول القبائل البدوية بالمنطقة، مثل قبيلة الأرباع (أنظر التعليق رقم 2) وقبيلة الحرازية (أنظر التعليق رقم 3) وقبيلة أولاد سيدي عطاء الله (أنظر التعليق رقم 4) وقبيلة أولاد يعقوب الأحرار (أنظر التعليق رقم 5). فذكر أصولها وفروعها ومواطنها، ورحلاتها الموسمية، ونشاطاتها الاقتصادية، والعلاقات فيما بينها ومع القصور المجاورة لها (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013، صفحة 67)، ودورهم في تنشيط الحركة التجارية بين التل والصحراء، وفك العزلة عن القصور، والمنتجات التي ينقلونها، كما تناول قدراتها العسكرية، وعاداتها وتقاليدها (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013، صفحة 72). ووصف طبائع السكان، فوصف سكان مدينة الأغواط بالطيبة والإنسانية، والكرم حتى مع

الأجانب، كما وصف سكان عين ماضي بالنظافة والهدوء، واللطفة وحسن الاستقبال.
(دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013 ، صفحة 56، 42)

ومن أكثر الجوانب التي اهتم بها، وفصل فيها ياسهاب، هي التاريخ السياسي والواقع السياسي بالقصور، فقدم معلومات مثلاً حول تاريخ مدينة الأغواط السياسي، فتحدث عن علاقتها بالسلطة المركزية العثمانية في الجزائر، والضرائب التي يدفعها سكانها. وتحدث عن الصراع الدائم بين المجموعات التي تسكنها، وأن الانقسام فيما بينها لم يكن اجتماعياً فقط، بل كان سياسياً وحتى عمرانياً أيضاً، فلكل مجموعة حيها، ففي الغرب يسكن أولاد سرغين، وفي الشرق الأحلاف، وفي الجنوب أولاد سيدي الحاج عيسى. وتحدث عن التنظيم السياسي بالمدينة، الذي يتمثل في نظام الجماعة، وبين أن الصراع بين الأطراف ليس على السلطة فقط، بل على المياه أيضاً التي تسقي الحدائق. (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013 ، صفحة 38)

كما تحدث عن محاولة الأمير عبد القادر بسط نفوذه على المنطقة، وموقف أعيانها من ذلك، والصراع على السلطة بين الحاج العربي (أنظر التعليق رقم 6) وأحمد بن سالم (أنظر التعليق رقم 7)، والصراع بين الأمير عبد القادر والتجاني (أنظر التعليق رقم 8)، وما نتج عن هذا الصراع. كما تطرق إلى علاقة أحمد بن سالم زعيم الأغواط بالفرنسيين، كما أشار إلى أهمية احتلال الأغواط بالنسبة لفرنسا من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013 ، الصفحات 42-48)

لم يكن دوماس هو الوحيد الذي قام بدراسة حول الصحراء الجزائرية، بل توالى الرحلات التي مهدت لاحتلالها، ومنها الحملة الاستكشافية للجنرال ماري مونج (أنظر التعليق رقم 9) التي قادها على الأغواط وقصورها شهري ماي وجوان سنة 1844م، وقدم عنها تقرير عسكري احتوى دراسة مفصلة عن مختلف جوانب الحياة في قصور الأغواط وقبائلها. وقدم من خلاله الاستراتيجية المناسبة لإخضاع قصور الأغواط وقبائلها من خلال إخضاع وجهاءها وسادتها، ودرس نقاط القوة ونقاط الضعف في تحصيناتها، والتي يمكن الاستفادة منها للسيطرة على المنطقة. وفي إطار ذلك تحدث عن القصور التي خصص لها فصلاً خاصاً، ومنها قصر الأغواط والقصور الرئيسية المحيطة به، وهي قصر الحويطة وتاجموت والعسافية وعين ماضي وقصر الحيران، فعرض لشروط إنشاء القصور التي منها أن تقام على مواقع مرتفعة لضمان حصانة طبيعية لها، إضافة إلى ضرورة توفر المياه باعتبارها العنصر الأساسي للحياة، فتشيد قرب منابع المياه أو الأنهار أو الآبار الصالحة للشرب ولسقي المزروعات كما تحاط بأسوار لحمايتها من الهجمات الخارجية، وتقام بها مستودعات ومخازن لحفظ مؤن القبائل البدوية المتحالفة معها، كما قدم وصفاً للحدائق

وللأشجار المثمرة في مقدمتها أشجار النخيل، وذكر المواد المستعملة في البناء وهي الطين الخشن المجفف تحت أشعة الشمس (Monge, 1846, pp. 1-10)

إضافة الى ما سبق قدم معلومات عن المجتمع والاقتصاد والسياسة والتاريخ بالنسبة لقصور الأغواط، وجاءت المعلومات المتعلقة بالعمارة مختصرة مقارنة بسابقتها، ومع ذلك فان المعلومات التي أوردها في كتابه تعتبر مهمة للباحث، خاصة إذا وضعنا في الحسبان أنها جاءت نتيجة المشاهدة المباشرة، حيث ذكر أسماء القصور بالمنطقة، وتاريخ تأسيسها، والمجموعات البشرية التي أنشأتها، وموقعها الجغرافي، وشبكة المياه بها، وطرق توزيعها لسقي الحدائق، ومن بين ما ذكره حول العمارة ما يلي:

- بنيت الأغواط على المنحدرات الشمالية والغربية من جبل تيزقارين، وبها برجان لحمايتها في أعلى نقطة من التلة وتتصل بالسور، بها أربع مساجد بسيطة وفندق، ولا يوجد بها حمام (Monge, 1846, p. 31)

- أنشئ قصر تاجموت من طرف مهاجرين قدموا من الأغواط بعد طردهم نتيجة حروب داخلية، وهو قصر مبني جيدا، به حدائق جميلة، ولكن معظم المنازل دمرت أو تضررت بسبب الحرب بين الأعيان على السلطة، وتحتاج الى وقت من الهدوء لرفع أطلالها مرة أخرى. (Monge, 1846, p. 38)

- تحدث عن الحويطة باقتضاب، واهتم بالجانب السياسي فيها، وفيما يتعلق بالعمران فقد أشار الى أنها بنيت على مرتفع يهمن على وادي الدخلة الذي يسقي حدائقها، وسرعان ما يختفي في الرمال.

-العسافية تقع قرب مصادر جيدة للمياه، حيث تسقي حدائقها، التي وصفها بالكبيرة، كما تنمو بها حقول القمح أيضا، وقد ركز أكثر على تاريخها، ولم يقدم معلومات عن عمرانها. (Monge, 1846, pp. 38-39)

قصر الحيران بني على مرتفع، ومنازله واسعة، جدرانها من الطوب المجفف تحت أشعة الشمس، قام بتشبيده أحمد بن سالم. لا توجد به ينابيع ولا مياه جارية، ولكن هناك آبار توفر المياه، وان كانت رديئة نوعا ما لا يستعملها السكان للشرب الا في فترات الجفاف، وغالبا يستغلون البرك التي يتركها وادي مزي، وبها مخازن للمؤن تستأجرها القبائل البدوية، والقصر كبير رغم ما أصابه من دمار سنة 1843م، ولا تحيط بها الجدران، بها حدائق كبيرة وتزرع على جوانبها بعض حقول القمح. (Monge, 1846, p. 39)

- ذكر أن عين ماضي مدينة قديمة جدا، بنيت على سفح تلة تتدفق منها مجاري مياه لا تنضب تسقي حدائقها، لا تسكنها عائلة التجاني فقط، ولا يجدون ضيرا في سكن الغريب بينهم. وقبل سنة 1830 كانت بها مدارس لتكوين الطلبة، والوكلاء لتمثيلها، وهي مثل غيرها من القصور مبنية من الطوب المجفف. وتحدث بإسهاب نوعا ما عن تحصينات المدينة، وبين أن أسوار الحدائق تكمل الأسوار المحيطة بها، وأن جدران السور صلبة ذات بناء جيد، ومحاطة بحواف دائرية، سمكها مترين في الأسفل، وارتفاعها من عشرة الى اثني عشر مترا، باستثناء الجزء الجنوبي الشرقي فان ارتفاعه يصل الى خمسة أمتار. ولا توجد خنادق، تتخللها أبراج مع العديد من المنافذ، وقد دمر جزء منها أثناء حصار الأمير عبد القادر للقصر، ثم أعاد أحمد الحبيب التجاني بناءها وبها مدخلان. وأما منزل التجاني فذكر أنه قوي جدا، وأبوابه من القصدير، أما عن الشوارع فهي ضيقة والمنازل ضيقة أيضا. ثم ركز على أداء مهمته المتمثلة في السيطرة على هذه القصور من خلال دراسة مواطن الضعف في تحصينات عين ماضي، والتي تمكنهم من اختراق الأسوار بسهولة، موضحا أن قوة التجاني لا تضاهي قوة الفرنسيين. (Monge, 1846, pp. 40-47)

عموما اهتم بتقديم معلومات تتعلق بالسياسية أكثر من اهتمامه بعمارة القصور، وما ذكره عنها لا يتعدى كونه وصفا سطحيا فقط، ولعل هذا يرجع الى قصر مدة رحلته، وتركيزه على المهمة المنوط بها، لهذا ركز أكثر على التاريخ السياسي لقصور الأغواط، منها علاقتها بالسلطة المركزية المتمثلة في العثمانيين ثم الأمير عبد القادر، كما اهتم بتقديم تفاصيل هامة حول التنظيم السياسي بها، ووصف سكانها بالشجاعة والذكاء ورجاحة العقل والنشاط. (Monge, 1846, pp. 30-37)

وعموما يقدم الكتاب الاستراتيجية التي تمكن فرنسا من اخضاع المنطقة لفرنسا، بالبحث عن نقاط الضعف التي يمكن استغلالها، مبرزا فوائد السيطرة على الأغواط بالنسبة لفرنسا لتوسيع نفوذها في الصحراء، إضافة الى أهميتها التجارية داخل افريقيا والأرباح التي يمكن أن تجنيها من وراء ذلك. (Monge, 1846, pp. 53-55)

ومن المؤلفات الأخرى التي اهتمت بتاريخ الأغواط، وقدمت معلومات هامة عن القصور نجد الجنرال تروملي (أنظر التعليق رقم 10) في كتابه، حيث خصص فيه لكل قصر فصل خاص به، ويعتبر دراسة مفصلة في التاريخ والجغرافيا، والاجتماع والاقتصاد، والسياسة والعمران، ورغم قلة المعلومات التي تتعلق بالعمارة الا أن الكتاب مهم ولا يمكن للباحث في تاريخ الأغواط أن يستغني عنه، كونه يتناول جوانب أخرى لها علاقة بالعمران عموما، كالأنشطة الاقتصادية في قصور المنطقة، إضافة الى اهتمامه بالتاريخ السياسي لهذه القصور.

ان أول ما صادفه الجنرال تروملي بعد دخوله منطقة الأغواط هو خان سيدي مخلوف، الذي يحتوي على ضريح الولي الصالح سيدي مخلوف، حيث قام بوصفه وبين أن الضريح عبارة عن بناية تضم قبر الولي، كما تضم قبور أسرته وبعض مريديه، إضافة الى مكان آخر مخصص للوكيل، الذي يعمل على العناية بالضريح كإبعاد الرمال والحجارة عن المكان، وصيانة القبة من كل ما قد يسوؤها، كما يجمع الهدايا أو ما يعرف بالزيارات التي يقدمها زوار الضريح حيث فصل في هذا الجانب. (Trumelet.C, 1879, p. 76)

تحدث الجنرال تروملي عن مدينة الأغواط وتاريخها والمجموعات السكانية التي تقطنها، وتتمثل في الأحلاف وأولاد سرغين وأولاد سيدي الحاج عيسى (أنظر التعليق رقم 15). وعاد الى سنة 1775م عندما قاد محمد الكبير باي وهران حملة على الأغواط وقصورها، لعدم خضوعها ودفها الضرائب، معرجا على أهم الضرائب التي حصلها منهم. وبين كيف منح السلطة للأحلاف، وطرد أولاد سرغين. كما تحدث عن الصراع بين أعيان الأغواط سنة 1836م، واستنجد الحاج العربي حفيد سيدي الحاج عيسى بالأمير عبد القادر، وتناول بالتفصيل الصراع بين أعيان الأغواط على السلطة في ظل توسيع الأمير لنفوذه في المنطقة وموقفهم من ذلك. كما تحدث عن حصار الأمير لعين ماضي، وتحطيمه لجزء من بناياته وحدائقه، وخروج التجاني الى الأغواط، وتحالفه مع أحمد بن سالم ضد الحاج العربي، وهزيمة الأخير في قصر الحيران على يد خصمه، ثم استنجاهه بالفرنسيين، ووصول الجنرال ماري مونج الى الأغواط، وتعيين أحمد بن سالم خليفة على المنطقة بقصورها وقبائلها، ووصول الشريف محمد بن عبد الله (أنظر التعليق رقم 11) الى الأغواط. كما تحدث عن قصر تاجموت وتاريخه وصفات سكانه، وتناول وصول رتل الجنرال يوسف الى المنطقة، وتخيمه بالقرب من قصر عين ماضي. (Trumelet.C, 1879, pp. 61-91) وقد عمل على توضيح تأثير الأوضاع السياسية المضطربة سلبا على عمارة القصور التي تعرضت للتخريب والتدمير.

وما يلفت انتباه القارئ لهذا الكتاب أن تروملي يتحدث بفخر عن سيطرة الفرنسيين على الأغواط، ويشيد بدور قادة الحملة يوم 4 ديسمبر 1852م، ثم انه عمل على ابراز محاسن الاستعمار من خلال تغييره الوجه المعماري لمدينة الأغواط، بحيث تحولت الأغواط في نظره بعد احتلالها من مدينة متداعية مخربة وموحلة متشقة الى مدينة فرنسية غربية، أصبح لمنشآتها طابعا خاصا، اذ تم استبدال تحصيناتها التي كانت تتألف سابقا من برجين مربعين كبيرين في أعلى نقطة في التلين، والتي تتصل بسور صلب وقوي يدافع عن المدينة، بحصنين واحد في الشرق والآخر في الغرب وهما حصنا موران وبوسكارين. كما تم اجراء تعديلات على الشوارع وتنظيفها. وأشاد بشارع الماريشال

روندون، وقال أنه شارع جميل مستطيل الشكل، ومحاط ببنائيات على الطراز المغربي، تعطي انطباعا جيدا، في أحد جانبيه فندق القائد الأعلى، والدائرة العسكرية، يوازيهما الجناح العسكري والمكتب العربي. وعلى الجانبين القصيرين توجد أسواق محلية، (Trumelet.C, 1879, p. 62) أحدهما يرجع الى الشيخ علي، تعلوه قبة أنيقة تضم ساعة المدينة. من حيث المظهر تحولت جدران المنازل القديمة الرمادية المبنية من الطوب، واستفادت من طلاء يعدل مظهرها، ويبيد اشمئزاه من لونها السابق. وبالنسبة لقصة بن سالم المعروفة بدار الصفاح التي استولى عليها الفرنسيون بعد اختراقهم جسور الأغواط يوم 4 ديسمبر 1852م، فقد تحولت الى مستشفى وثكنة ومخزن. وذكر أن هناك مسجد كبير تم بناءه بتضامن الأهالي، يحيط به النخيل، أما المزروعات في الشوارع فتسيطر عليها أشجار النخيل، التي تمنح الظل للسكان، كما تحدث عن حدائق الأغواط الغنية بالأشجار المثمرة التي تحيط بها أشجار النخيل. (Trumelet.C, 1879, p. 63)

ووصف قصر تاجموت بأنه يبدو عبارة عن مزيج صامت من الجدران الرمادية، المتشققة والمحطمة، وقد تضرر كثيرا من الحروب الداخلية التي قامت بين الأعيان، وعموما لا شيء من عمران تاجموت أعجبه، فالقصر بدا له قبيحا سيئا، بل ظهر له مثل كومة من الرماد قادمة من محرقة عملاقة، حتى أشجار النخيل تبدو جافة، وذكر أن أهالي تاجموت كانوا ثائرين ضد الاحتلال الفرنسي. (Trumelet.C, 1879, p. 85)

كما تحدث عن قصر عين ماضي، ومؤسسه وأتباعه ومريديه، وتأسيسه للقصر، والغزاة والسلاطين الطامعين في السيطرة عليه، ومولد أحمد بن محمد التجاني (أنظر التعليق رقم 12)، وتأسيسه للطريقة التيجانية. وتحدث عن حملة محمد الكبير باي وهران على عين ماضي، وكذلك حملة ابنه عثمان، وإعادة بناء أسوار عين ماضي عقب الحملات، و وفاة أحمد بن محمد التجاني، وتولي ابنه محمد الكبير منصب خليفة الطريقة التيجانية. وحملة الباي حسن على عين ماضي، وحصاره للقصر، وتلا ذلك حصار باي التيطري لعين ماضي وهزيمة التجاني له، وحملة التجاني على معسكر، وخيانة الحشم له، وقتله من طرف باي حسن، الذي علق رأسه على أحد أبواب الجزائر، وبعده تولى إدارة الزاوية محمد الصغير التجاني. وذكر وصول الأمير عبد القادر الى الصحراء، وأخذه لقطع التجاني، ومحاولة التجاني استعادتها، وقدم الامير للتخييم عند جدران القصر، ومراحل حصار الأمير للقصر، وقوات الطرفين المستعملة للحصار، وآثار الحصار على الطرفين، ومطالب الأمير من التجاني، وصمود التجاني في الحصار، وارسال مدفع من طرف فالي للتجاني، وهزيمة التجاني وشروط تسليم عين ماضي، واخلاء التجاني وعائلته للقصر، وهدم الأمير للأسوار والحدائق، وانتقال التجاني الى الأغواط، وتحالفه مع أحمد

بن سالم ضد خليفة الأمير الحاج العربي، وعودة التجاني الى عين ماضي، وبناء أسوار قصره من جديد. وتحدث عن حملة ماري مونج على الأغواط، وارساله سانت أرنو للقاء التجاني، وزيارة الجنرال بليسيي(أنظر التعليق رقم13) لعين ماضي، ووفاة التجاني وتعيين ريان قايد على عين ماضي، ووفاة التجاني ثم ابنه وبقاء المنصب الخلافة شاغرا، وبحث ريان عن وريث له، كما تحدث عن ضيافة التجاني للرتل الفرنسي. (Trumelet.C, 1879, pp. 97-149)

وعبر تروملي عن المظهر المتفرد والمتميز لمنزل التجاني، فذكر أن قصبة التجاني ذات أسوار عالية، ومبيضة بالجير، تعطي مظهرا رائعا للقصر، يجعله يتميز عن غيره من المنازل الأخرى، ذات اللون الرمادي الباهت وفي اطار وصفه لمنزل التجاني فانه تحدث عن غرفة الضيافة فيه بقوله: "دخلنا الى قصر التجاني، وصعدنا الى الشقق عن طريق درج حجري، يؤدي الى غرفة ضخمة، مقسومة بستار من النسيج المزخرف بألوان لامعة الى قسمين، يتدلى من السقف الى الأرض مما يشكل غرفة، هذا المكان يحتوي على صناديق و رفوف وأرائك، وعرش التجاني الذي يجلس عليه أثناء استقبال الضيوف، وكلها مزينة بأقمشة ملونة، وغطيت الأرض بالسجاد". وتعجب وأبدى استغرابه، من المزج الغريب كما سماه بين الأثاث، فهناك الأثاث المغربي إضافة الى الأثاث الأوروبي، وبين أن هناك تنافر واختلاف واضح بين الاثنين، يضاف اليه طراز المنزل وزى سادة المنزل. (Trumelet.C, 1879, p. 144)

كما تحدث تروملي عن مسجد و ضريح المرابطين التجانيين بكثير من التفصيل، حيث زار الضريح، بقوله يتيح الممر الوصول الى فناء مغربي، مغطى بالكامل بشبكة من الأسلاك، على اليسار بوابة رائعة تحفة فنية، من صنع فنان تونسي، تفتح على مكان دفن المرابطين، ليس هناك ما هو أكثر أناقة من هذا المكان المرصوف بالرخام، ليس هناك ما هو أكثر ثراء من آخر مسكن للمرابطين، انه تحفة صغيرة انه أعجوبة من الفن المغربي، التابوت مثل وعاء الذخائر، الذي يحتوي على بعض الذخائر الثمينة الخاصة بالمرابط، حيث يلاحظ المرء الزخرفة العربية التي تتشابك، و تتصل ببعضها البعض، في مساحة قرمزية ونقوش بالذهب، مما يدل على أنه قبر الشيخ أحمد بن محمد التجاني، لقد أبدع الفنان في نقش هذه اللوحات... لا يمكن مقارنة ضريح التجاني في أناقته و ثروته، بضريح أي مرابط آخر في الصحراء. (Trumelet.C, 1879, p. 143)

إضافة الى العسكريين السابقين نجد أيضا الجنرال مونجن قد اهتم بمنطقة الأغواط، من خلال المقالات التي كتبها في المجلة الافريقية، في ثلاث أعداد متتالية، وتعتبر دراسة مستفيضة عن المنطقة بقصورها وقبائلها، شملت مختلف المجالات، وركزت

خاصة على الجانب السياسي، والمقاومة الشعبية في الجنوب، وطبيعة السياسة الفرنسية المنتهجة للقضاء عليها، والإدارة الفرنسية لقصور وقبائل المنطقة، إضافة الى ذلك اهتم بالعمارة، وان كان ما كتبه حولها يعتبر قليلا، ولكنه اهتم بمسائل تخص العمران كالإمكانيات الزراعية في واحات القصور.

تحدث مونجن في مقدمة كتابه عن الجانب الجيولوجي والجغرافي لمنطقة الأغواط، كما قدم وصفا لواحات الأغواط، وقدم توضيحات حول التنظيم السياسي لدائرة الأغواط

(Mongin.E, 1895, pp. 255-265) تحدث عن أصل سكان الأغواط، والمجموعات البشرية التي قطنتها من العصور القديمة وصولا للهجرات الهلالية، وعن تأسيس الأغواط، وقدم معلومات حول الولي الصالح سيدي الحاج عيسى (أنظر التعليق رقم 14) ودوره في توحيد قصور الأغواط، وتحدث عن القبائل التي تسكن الأغواط وهي الأحلاف وأولاد سرغين، والصراعات بينهما، والحرب بينهم وبين بني ميزاب. وتناول محاولات حكام الجزائر العثمانيون للسيطرة على الأغواط، والصراع على السلطة بين الأحلاف وأولاد سرغين، ووصول أحمد بن سالم للسلطة. (Mongin.E, 1895, pp. 366-396)

كما قدم تفاصيل هامة عن وصول الأمير عبد القادر للأغواط، وحصاره لعين ماضي، والصراع المير بين خليفتي الأمير الحاج العربي وعبد الباقي مع أحمد بن سالم، وانفراد الأخير بالسلطة، وحملة ماري مونج على الأغواط في شهري ماي وجوان 1844م، وتعيينه لأحمد بن سالم خليفة على الأغواط. وتدخل الجنرال يوسف في المنطقة سنة 1846م، وظهور الشقاق بين أحمد بن سالم وابن ناصر شهرة (أنظر التعليق رقم 15) وانقسام الحجاج والحرازية، وثورة بن ناصر بن شهرة ضد الفرنسيين (Mongin.E, 1895, pp. 86-96)

كما تحدث أيضا عن مجيء محمد بن عبد الله سلطان ورقلة الى منطقة الأغواط، ولقاءه بابن ناصر بن شهرة، ووفاة أحمد بن سالم، وثورة يحيى بن سالم، إضافة الى ذكره للشيخ علي بن سالم وابن أميدة، ثورة سكان الأغواط، ودخول محمد بن عبد الله لمدينة الأغواط (Mongin.E, 1895, pp. 96-107).

قدم معلومات حول الحملة الفرنسية، وتعداد القوات الفرنسية المعدة للهجوم على المدينة بالتفصيل، والقادة المسؤولين عن الهجوم، وخطة الاقتحام، وعدد مراحل الهجوم حتى الاستيلاء على الأغواط. (Mongin.E, 1895, pp. 227-273)

أما فيما يتعلق بموضوع الدراسة وهو العمارة، فإنه أعطى معلومات تخص العمران، منها الإمكانات الزراعية التي تتمتع بها واحة الأغواط، كالتربة الصالحة للزراعة ووفرة المياه الصالحة لسقي الواحات، وخص بالتفصيل وادي مزي مصدر الحياة لصور الأغواط. ومما ذكره أن الأغواط تقع على ارتفاع يقدر ب787م عن سطح البحر، المنحدر الشمالي للتل مغطى بالمنازل، أما المنحدر الجنوبي فهو أكثر حدة، وفي بعض الأماكن يشهد انحداره. تمتد البساتين على الشمال وجنوب جبل تيزقارين، الذي يقسمها إلى مجموعتين. المدينة محاطة بسور به قلعتان، أحدهما في الشمال الشرقي قلعة موران، وقبل الاحتلال كانت قلعة سي عبد الله، والأخرى في الجنوب الغربي قلعة بوسكارين، وكانت سابقا قلعة بن سالم، تتوجا طرفي قمة الجبل، وعلى المرتفع الذي تقع به قلعة بوسكارين، يوجد مرتفع لصيق به، بني عليه ضريح سيدي الحاج عيسى. (Mongin.E, 1895, p. 360)

وأضاف أن منازل السكان المحليين مبنية بطوب طيني رملي، مخلوط بالماء، يوضع في قوالب خشبية مستطيلة، ثم يجفف تحت الشمس، لتشكل هذه اللبنة صفيين أو ثلاثة إلى أربعة صفوف على حسب سمك الحائط، الذي يراد بناءه، ويطلق كل صف من اللبنة بالطين، ليوضع عليه صف آخر، وعند اكتمال الجدار، تطلق واجهته الداخلية والخارجية بالطين.

المنازل عموما مكونة من طابق أرضي، ومغطاة بأسقف من جذوع النخيل، مقسمة طوليا إلى أجزاء، ندره الخشب الذي يستخدم وقودا لتصنيع الجير تجعل من الخشب مادة باهضة الثمن، مما يحتم على السكان استعمال الطريقة التي ذكرناها، وبعد الاحتلال مصالح هندسة الفرنسية وافقت على هذه الطريقة، وقررت عدم الغائها، لكن تم ادراج استعمال الجير بين أحجار البناء لإعطائه صلابة أكثر.

الجهة الشمالية يسكنها الأوروبيين، في شوارع كبيرة مزينة بالأقواس، تم تخطيطها وفق البنايات الأوروبية، بنيت مساكنهم على أنقاض منازل السكان المحليين، ولم يبق إلا الحي الجنوبي على الهيئة التي كان عليها قبل احتلال المدينة (Mongin.E, 1895, p. 361)

وذكر أن السكان يعتمدون على وادي مزي لري بساتينهم، بحيث تخزن مياهه في سدود، وتنقل بسواقي إلى الحدائق، كما وصف حدائق الأغواط بأنها العامرة بأنواع الأشجار المثمرة، وفي مقدمتها شجرة النخيل، وفصل في اهتمام السكان بالنخلة، وكيفية

تكاثرها، وأنواع التمور التي تنتجها واحات الأغواط، وتحدث عن فوائد النخلة ومكانتها عند سكان الأغواط. (Mongin.E, 1895, p. 363)

كما تحدث عن المجموعات البشرية التي سكنت الأغواط، وتأسيسها للقصور الأولى التي تكونت منها مدينة الأغواط، كما أشار الى القبائل البدوية، التي كانت قيم في الأغواط وهي الأرباع وأولاد يعقوب والرحمان، والعلاقات بين هذه القبائل، وامتداد مضاربهم، والقبائل التي غادرت الأغواط وأسباب مغادرتها. (Mongin.E, 1895, pp. 377-378)

2- ثانيا: قراءة نقدية لمؤلفات الرحالة للعمران الصحراوي بمنطقة الأغواط خلال ق19م

اهتم المستشرق الفرنسي أوجين فرومنتان (أنظر التعليق رقم16) بالجزائر خلال رحلاته الثلاث إليها، وقد قادته رحلته الأخيرة الى الصحراء الجزائرية، فقصده الأغواط، وزار بعض قصورها، وخصص جزء هاماً من كتابه الصحراء والسهل للحديث عن منطقة الأغواط، والذي يعتبر دراسة معمقة، قدم فيه معلومات مفصلة عن مختلف المجالات، حيث تناول جغرافية المنطقة، وواقعها الاقتصادي والاجتماعي، وتاريخها السياسي، بما فيها موضوع دراستنا اذ عالج موضوع عمارة القصور التي زارها أو مر بها خلال رحلته صيف1852م.

فيما يتعلق بالعمارة فقد قدم معلومات يمكن الاستفادة منها، وان كانت قليلة، ومع ذلك يمكن أن تعطي صورة عن عمران الأغواط في الفترة التي زارها فيها، ومنها تحديده لطبيعة الموقع الجغرافي الذي بنيت عليه مدينة الأغواط، فذكر أنها مبنية من الشرق الى الغرب على ثلاث تلال، وهي تلال صخرية معزولة، بين سهل في الشمال والصحراء التي لا حدود لها في الجنوب، والمنحدر الشمالي للمدينة مغطى تماماً بالمنازل. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 81)

وبين أن الأغواط مثل غيرها من المدن الصحراوية، بنيت وفق مخطط بسيط، يقوم على تقليص المساحات لصالح الظل، وتتكون من الأزقة والممرات والطرق المغطاة بالقناطر، مع كثرة الزوايا لكسر أشعة الشمس. وهناك حيان متقابلان، واحد في الشمال، والآخر في الجنوب. الباب الشرقي يقابل الباب الغربي، والأزقة ضيقة لدرجة أنه لا يمكن المرور بوجود حيوانات فيها، وأما الشوارع فهي مبلطة ببلاط حجري لزج. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 93)

وما يميز المنازل في قصور الأغواط أنها متقاربة من بعضها، وهي مشيدة من الطين الذي يؤخذ من الحداثق ويخلط بالماء ويقطع بالقوالب، ثم يجفف تحت أشعة الشمس، ويستعمل للبناء، بحيث توضع قوالب الطين فوق بعضها البعض في صفوف متراسة، وفي الأخير يلبس الجدار بالطين السائل، (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 94) والمنازل الواحد يضم من عائلتين الى ثلاث، وتتكون المنازل من فناء مربع، مع مساكن في كل جهة، تتكون من غرفة أو اثنتين على الأكثر، وهي مظلمة، الباب منخفض لا يسمح بدخول الشمس الا عندما تصبح منحرفة تماما في الصباح أو في المساء، والجدران الخارجية للمنازل مطلية بلون داكن وهو الرمادي. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 110) وبعض المنازل اطاراتها مبيضة بالجير، والبعض الآخر باللون الأزرق، تعلوها شكل يد مفتوحة، ومربعات بألوان مختلفة، واستثنى منها منزل ابن سالم وحمامه، المطليان باللون الأبيض. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 96)

وما لفت انتباهه من بين كل المنازل بالمدينة، منزل ابن سالم، ويدعى دار الصفاح، والذي قال عنه أنه بني على قاعدة من الصخور، وشبهه بالحصن أو القلعة، وهي تقسم المدينة الى جزئين متساويين تقريبا، وتفصل بين الحيين المتعادين، يقصد حي الأحراف وحي أولاد سرغين، وتشكل مقر السلطة المركزية. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 82)

كما ذكر أن هناك حمام وحيد بالمدينة، بناه بن سالم قبل بضع سنوات من وفاته، واستعمل لذلك عمال ايطاليين، وتحدث عن المسجد الذي حوله الفرنسيون الى كنيسة، وقال أنها مطلية بالأبيض بها فتحات مستطيلة يعلوها صليب. كما ووصف منزل القائد العام، الذي بين أنه يختلف عن المنازل العربية الأخرى، يبدو شكله أوروبي تقريبا من حيث نوافذه ولون واجهته. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 79)

إضافة الى ما سبق وصف دار الضياف بمدينة الأغواط، فذكر أنها تتكون من أربعة منازل في الطابق الأرضي، وبها غرفتان في الطابق العلوي، وما يربط بين الطابقين سلم يصعب تسلقه في الليل. وبالمدينة شارع به المحلات كالمقاهي وأكشاك الخردوات، والمحلات التجارية الصغيرة لتفصيل وخياطة الأقمشة، يديرها المزابيون، ودكاكين صغيرة للصياغة يملكها اليهود. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 77-94)

تحدث عن الأضرحة بقصر الأغواط، ووصف ضريح الولي سيدي الحاج عيسى، وهو بناء مكعب من الجبس الأبيض بقبة مخروطية الشكل، وتوءم مسنن في كل زاوية، أما

الداخل فمطلي بعناية مزخرف بكتابات عربية (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 151).

كما اهتم بوصف العمارة العسكرية بالقصر، حيث ذكر أنه محاط بسور مستطيل ذو شرفات بها فتحات ضيقة تطلق منها القذائف، وبرجان أحدهما في الشرق والآخر في الغرب، كما كان لدار الصفاح قمتان متطرفتان كل واحدة منهما معززة ببرج وسور، وللمدينة باب كبير أخشابه ثقيلة مرقعة بالحديد، وله مغلاق خشبي ضخمة. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 82,84)

وفيد الكتاب في التعرف على الآثار المادية والنفسية للاحتلال الفرنسي لمدينة الأغواط، وإن لم يكن شاهدا عليها، حيث أخبره بتفاصيل الحادثة الضباط الفرنسيين الذين التقاهم بالأغواط، الذين شهدوا الوقائع وصنعوه. وقدم وصفا للدمار والخراب الذي تعرضت له مدينة الأغواط من الأسوار الخارجية إلى المنازل، ومما لاحظته هو وجود أبواب مثقوبة بالرصاص، وعليها آثار الحراب، والبيوت تبدو رهيبة، والجدران متصدعة، والمنازل فارغة وبها ندوب، (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 70-74) حتى دار الضياف كانت في حالة سيئة، وتحولت إلى مرتع للسحالي والفئران، والجدران مثقوبة، حتى الأبواب الكبيرة مفتوحة على الشارع ولا تغلق. ويبدو من كلامه أن حالة الخراب التي أصبح عليها المكان تعود ليوم 4 ديسمبر الأسود، وتساءل باستهتار إن كان هذا الخراب الذي أصاب المدينة يرجع للإهمال، أم بفعل يد العدو؟ وفي هذا استهتار واضح وتغطية لجرائم الاحتلال. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 77-78)

بعد زيارته للأغواط اتجه الرحالة إلى قصر عين ماضي، وكتب ملاحظات هامة حوله، وقد أطلق عليه تسمية المدينة. وحدد موقعها الجغرافي، فقال أنها تقع على سهل في شكل بيضة نعام، مقطوعة إلى نصفين بالطول. وقدم معلومات حول المنشآت المعمارية، ومما ذكره أن منزل "التجاني" مطلي بالأبيض بهندسة مغربية، شكله فريد ومتميز يذكر في الوقت نفسه بالقصر والمسجد، هو مرتفع ومفتوح في الطابق العلوي بنوافذ ذات أقواس قرطية منقوشة بعناية كبيرة، ويشكل في نفس الوقت منزل التجاني وقبره ومسجده ووصف مسجد عين ماضي وما يميزه أنه بدون مؤذنة وهو مبني بالجير، كما تنتصب الزاوية التجانية ببنائها المميز

ومن المنشآت الدينية التي لفتت انتباهه ضريح الولي "التجاني"، المحاط بدار بوزنات منقوشة ومطلية ومذهبة، والضريح يعتبر تحفة فنية توحى بالأبهة والفخامة، صنع

في تونس ثم نقل إلى عين ماضي وركب قطعة قطعة (Fromentin.E, Un Été dans le Sahara , 1904, p. 236)

ويبدو أنه أعجب بدار الضيوف في قصر عين ماضي بعكس دار الضياف في الأغواط، وهي عبارة عن منزل جميل المظهر، هيئتها توحى أنها مخصصة للضيوف، بها فناء كبير، ودرج مبني بكيفية جيدة، يؤدي إلى الطابق العلوي، حيث يخصص البهو كمكان لراحة الزوار في النهار، وبها سطح واسع يفرش بالبسط في الليل، واسطبلات فسيحة تستعمل لخيول مرتاديهـا (Fromentin.E, Un Été dans le Sahara , 1904, p. 231)

واهتم بإعطاء تفاصيل حول التحصينات، فذكر أن كل جزء من التحصينات مشيد بشكل جميل، وفي حالة جيدة من الصيانة، يحيط بالقصر سور قوي، والباب الكبير بهيئة مدخل القلعة، يخترق جدار عالي، ومحاط ببرجين كبيرين مربعين، وهو عالي جدا بعكس عادة الأبواب في المدن العربية، وهو قوي جدا يحيط به إطار من الجير، مبلط بالحجر الرمادي المصقول مثل الحديد، وتدعم قوائم الجدران، الرواق عميق به فتحات مسلحة، والشارع الرئيسي واسع جدا ونظيف، بين جدارين كبيرين صليبين، مبنية من الحجارة دون فتحات. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 173)

وبعد عين ماضي زار قصر تاجموت، الذي قال أنه يغطي هضبة صخرية صغيرة في شكل مثلث ممدود، محاط بسور ملتصق بجدران المنازل، به بابان يعلوهما سور ذو شرفات صغيرة، الباب الموجود بجهة عين ماضي يسمى باب سفارين، والباب الموجود بجهة الأغواط يسمى باب أولاد محمد (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 160-161)، وجدران البساتين معززة بالسلاح، و على طول السور هناك أبراج صغيرة وقوية، وهي عبارة عن حصون صغيرة مسننة بتسنيينات بسيطة، بها فتحات ضيقة تطلق منها القذائف، ولها باب مربع مثبت في البرج يربط الأسوار بجدران البساتين (Fromentin.E, Un Été dans le Sahara , 1904, pp. 219-220)

وحسب فرومنتان فإن شوارع تاجموت أضيق من شوارع الأغواط مبلطة ببلاط حجري، وخلال جولته في القصر زار ضريح الولي الصالح "سيدي عطاء الله"، الواقع على ربوة صغيرة وسط الأشجار، وهو عبارة عن قبة مبيضة بالجير، ومحاط بجدران صغيرة من الحجارة الجافة (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 165)

كسابقه تناول بالتفصيل الجانب السياسي للفترة التي تسبق الاحتلال، منها الصراع على السلطة بين الأعيان الذي شهدته الأغواط، وحصار الأمير لعين ماضي وما نتج

عنه، وعلاقة أحمد بن سالم بالفرنسيين، وتحدث بفخر عن إنجازات الجيش الفرنسي في الأغواط، وقدم تفاصيل حول الحملة الفرنسية على الأغواط سنة 1852م، وكيف تمت السيطرة على المدينة. وتحدث عن فداحة المجزرة المرتكبة في حق السكان، والدمار الذي أصاب المدينة، والخسائر التي تكبدها الفرنسيون. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 82-83) السياسي، بالرغم من أنه لم يكن شاهد عيان، بل اعتمد على روايات العسكريين الفرنسيين الذين التقاهم، ومع ذلك لا يمكن الاستغناء عن تلك المعلومات، لأهميتها ولكثرة التفاصيل التي أوردتها. كما تحدث عن آثار الاحتلال في مختلف الجوانب، ويعتبر ما جاء في كتابه تصوير حي لوقائع الحرب التي دمرت المدينة وأخلتها من ساكنتها. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 90-92)

وللإشارة فإن الكتاب اهتم بالجانب الاجتماعي أكثر من غيره من الجوانب الأخرى، فتحدث عن الأسرة العربية، والتركيبية الاجتماعية للأسرة، والعلاقات بين أفرادها، ودور كل فرد فيها، كما تحدث عن عادات السكان، وسلوكياتهم المختلفة ومواصفاتهم. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 103) والرجال، وتحدث عن المناسبات الدينية، وكيفية الاحتفال بها، ومنها صيام شهر رمضان الذي شهده في الأغواط، وعيد الفطر الذي صادفه في الأغواط وعين ماضي. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 96,112) تلقاها في تاجموت من طرف القايد، وأطباق الطعام المقدمة فيها، وسلوكيات الحاضرين لهذه الوليمة. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 162) والضيافة التي تلقاها من طرف قايد عين ماضي، وأبدى إعجابه بالكرم وحسن الضيافة. كما قدم نموذجا لتنظيم القبيلة عند مصادفته لقبيلة الأرباع خلال تنقلها عندما كان مغادرا الأغواط الى عين ماضي، فصور تنظيمها وفرسانها وقادتها، وكيفية تنقلها، وحيواناتها من مواشي وخيول، كما وصف أغراضهم وملابسهم وطريقة تنقلهم من القائد الى الخدم، ووصف فرسانها بأنهم محاربون أشداء. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 173-174) هذه التفاصيل الهامة يمكن أن تفيد الباحث منها في الجوانب الاجتماعية. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 97)

أما عن الحياة الاقتصادية فقد وصف الحداثق وقدم معلومات هامة حول أنواع النباتات التي تنمو بحدائق الأغواط والأشجار المثمرة والخضروات. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 139) بل حتى الحيوانات التي تتخذها مأوى، منها الطيور المختلفة بما فيها الطيور المهاجرة. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 123)

كما تحدث عن نظام الري، وكيفية توزيع المياه على الحدائق. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 101) وأهمية مياه وادي مزي في سقي الحدائق. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 152) كما قدم صورة واضحة عن الأنشطة الحرفية في المدينة والأطراف التي تمارسها، وتحدث عن أهم حرفة تمارسها النساء، وهي حرفة النسيج، حيث تمكن من دخول أحد المنازل، ووصف أدوات النسيج، ودور كل امرأة في الأسرة في هذه العملية، ووضح تقنية النسيج التي تعتمد عليها النسوة. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, p. 110)

ومن المواضيع التي عالجها ويستفيد منها الباحث في الحياة الاقتصادية للمنطقة، تناوله لأهمية الأغواط التجارية، فتحدث عن سوق أولاد سرعين وسوق الأحلاف، والقبائل التي تقصدهما، حيث تتبادل منتجات الشمال بالجنوب، وتحدث عن أنواع السلع المتبادلة، ودور المحلات والدكاكين والمقاهي في التجارة، إضافة للمخازن التي تستعملها القبائل البدوية لحفظ مؤنهم. (Fromentin.E, Sahara et sahel, 1886, pp. 94-96)

ومن الرحالة الأجانب الذين زاروا الأغواط، نجد الإنجليزي هاينريش فون مالستان (أنظر التعليق رقم 17)، واحتوى كتابه على معلومات معتبرة حول العمارة، وأول ما صادفه مثل الجنرال تروملي هو ضريح سيدي مخلوف، الذي مر به في طريقه إلى الأغواط، حيث قال أنه عبارة عن قبة صغيرة رأسها مطلي بالأبيض، وأنها ليست مستديرة مثل غيرها، وإنما عبارة عن هرم بديع يشبه قمع السكر، ومما ذكره أن السكان دأبوا على اجلاله وتعظيمه، وهناك عدد كبير من الناس لا يزالون إلى اليوم يطلبون أن يدفنوا بالقرب من قبته، لتشملهم بجواره البركة التي تشع منه حتى بعد موته حسب اعتقادهم. (مالستان و، تر: دودو، 1980، صفحة 221)

وما ذكره عن مخطط الأغواط لا يختلف عما ذكره فرومنتان، حيث قال أنها بنيت مثل بقية المدن الصحراوية، على أساس مخطط سهل، حيث طبيعة المناخ الحارة، تفرض تضيق المكان للحصول على الظل، الذي يعتبر ضروريا في إفريقيا، فقد كانت هناك شوارع ضيقة كثيرة المنعطفات، وطرق مسدودة وأزقة مسقفة. تقوم المحلات على جانبيها، وفنادق تتوسطها الأعمدة، وممرات ومتاهات يحتاج فيها الغريب إلى دليل، ومع ذلك فقد كان ثمة في غمرة الفوضى شارعان يختلفان عن غيرهما، كانا قد بنيا بطريقة معينة وإن لم تكن منتظمة، أحدهما يتجه من الشمال إلى الجنوب، والآخر من الشرق إلى الغرب، وكان أحدهما وهو الشارع الرئيسي الذي تركزت فيه الحركة، يبدأ من الباب الشرقي، وينتهي عند الباب الغربي، أي من باب الريح الشرقية إلى باب الريح الغربية،

ففي الصحراء بلاد الرياح القوية والمتكررة، لا تختار الأسماء حسب الجهات بل حسب اتجاه الرياح. (مالستان و ، تر: دودو، 1980، صفحة 227)

كما قدم وصفا لمنزل علي بن سالم خليفة الأغواط، الذي استقبلهم في منزله، وسماه بالقصر، وذكر أنه يتكون من طابق أول، الذي كانت توجد به غرفة الاستقبالات، ثم قام بوصف أثاثها، وبين أن كل أثاثها أوروبي، وكعادة الأوروبيين سخر من الأثاث، واعتبره غير نظيف، كما تحدث عن طبائع السكان وأخلاقهم. (مالستان و ، تر: دودو، 1980، الصفحات 237-238)

وأما عن الشوارع فانه تحدث عن شارع بليسي، ووصفه بأنه شارع ضيق مثل الشوارع الأخرى، تقوم على جانبيه بيوت عالية، تمتد طولها العليا فوق عرض الشارع، لتحول دون وصول أشعة الشمس اليه، وكانت هذه البيوت كلها باستثناء عدد قليل بناء الفرنسيون مبنية بالطوب، أي أنها عبارة عن كومة غير متناسقة من الطين، انها عبارة عن قصور طينية حجارتها من طين جاف. (مالستان و ، تر: دودو، 1980، صفحة 227)

كما تحدث عن الساحة العامة التي تحيط بها بنايات فرنسية كبيرة بيضاء شبيهة بالثكنات العسكرية، وبنايات عربية لالون لها، بل تبدو في الضياء ذات ألوان متعددة.

أما تاجموت فتقع فوق مرتفع حجري كونته طبيعة الأرض الصحراوية البديعة، لقد كانت هذه الهضبة الصغيرة التي تقع فوقها المدينة وبساتينها، ذات شكل مثلث الزوايا، وكان هناك سور يبدو كسور المدينة من بعيد، ولكنه لم يكن في الحقيقة سوى مرتفع من الطين، يحيط بالمدينة وينحدر ليحيط ببساتين النخيل أيضا، ويرى فوقه في بعض الأحيان برج هرمي الشكل مسنن به كوة لإطلاق النار، وكانت هناك قبتان تضمان رفاة ولبيين وتقعان الى جانب المثلث الصخري الذي تقع فوقه مدينة تاجموت.

كانت عين ماضي عبارة عن مدينة صغيرة، تبدو كتلة سوداء وسط الصحراء، كان يحيط بها سور كبير قوي، كانت أبراجه الكثيرة ذات سقوف هرمية الشكل، يدخلها الداخل عبر الباب الكبير الذي كان شبيها بالقلعة، وكان أعلى بكثير من أبواب المدن العربية الأخرى، تحيط به أسوار حصينة، وقد ارتفع على جانبيه برجان مربعان جعلاه ذا مظهر ضخم (مالستان و ، تر: دودو، 1980، صفحة 250).

وأضاف وصفه لعمارة عين ماضي قائلا: "كان للشارع الأول الذي دخلنا منه مظهر فخم أيضا، كانت بيوته عالية ذات منظر أسود رهيب، خاليا من المارة، لكنه نظيف من الأوساخ، التي توجد عادة في الشوارع العربية، يوصل الى بيت التجاني، وكان بيتا عربيا أيضا وهو البيت الوحيد في عين ماضي، الذي لم يكن مبنيا من الطين، وغير بعيد عنه

كان يقع بيت الضيافة، وكان هو الآخر كوخا طينيا مثل البيوت الأخرى. (مالستان و ، تر: دودو، 1980، صفحة 251)

إضافة الى العمارة، تناول الرحالة موضوعات متفرقة تهتم بجغرافية المنطقة والحياة الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية، مما يجعل الكتاب ذا أهمية بالنسبة للباحثين في هذه الجوانب، خاصة أن هذه المعلومات ناتجة عن المعاينة المباشرة، كما أن الرحالة كان محايدين فيما كتبه. فعن الجانب الجغرافي قدم وصفا لتضاريس المنطقة ونباتاتها ومناخها، (مالستان و ، تر: دودو، 1980، الصفحات 221-227) كما قدم معلومات جغرافية حول الطريق بين الأغواط وعين ماضي، فوصف بالتفصيل تضاريسها ومناخها، ونباتاتها البرية المتنوعة، ووصف مناظر الصحراء الخلابة التي تركت في نفسه شعورا بالراحة. (مالستان و ، تر: دودو، 1980، الصفحات 244-246)

وعن الحياة الاقتصادية قدم معلومات مثل سابقه حول بساتين الأغواط، ووصف جمالها وغناها بالأشجار المثمرة، إضافة الى نظام الري المتبع لسقي المزروعات، والطيور والحيوانات التي تتخذها مأوى لها. (مالستان و ، تر: دودو، 1980، الصفحات 222-223)

كما تحدث عن مصادر سقي الحدائق، وكيفية توزيع المياه على الحدائق بالتساوي، وتحدث عن النشاط التجاري بالأغواط، من خلال المقاهي العربية، والمحلات والأكشاك المنتشرة على طول شارع بليسيي، ويمكن للباحث أن يستفيد من المعلومات التي قدمها في الجانب الاقتصادي. (مالستان و ، تر: دودو، 1980، صفحة 229)

وفي الجانب الاجتماعي قدم وصفا لملايس الرجال والنساء والفتيات، وعن بعض صفاتهن الجسدية، وتحدث عن الخطبة المبكرة للفتيات، والزواج المبكر وتأثيره على أجسادهن، كما تحدث عن حرمة المرأة في مجتمع الأغواط، كما أشار الى عن ترحيب السكان بهم لدى وصولهم للمدينة حسن الضيافة التي استقبلوه بها كما تحدث عن بعض عادات السكان (مالستان و ، تر: دودو، 1980، صفحة 247). ووصف أطباق الطعام التي قدمت له منها الكسكس. (مالستان و ، تر: دودو، 1980، صفحة 224)

إضافة الى الرحالة السابقين يعتبر بول سولييه (أنظر التعليق رقم 19) واحد من الرحالة الفرنسيين الذين صالوا وجالوا في الجزائر خاصة صحراءها، وان كان هدفه استعماريًا بحتًا، حيث عمل على خدمة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وإفريقيا، فان ما كتبه يعد دراسة هامة عن الصحراء الجزائرية، لأنه قدم معلومات مفصلة عن المجتمع والاقتصاد والسياسة والثقافة في هذه الأرجاء، زار منطقة الأغواط سنة 1873م، وكتب الكثير حولها، وان كان يهدف من وراء ذلك الى تسهيل مهمة الاستعمار في اخضاع

مجتمعات الصحراء، واستغلال امكانياتها، ويمكن للباحث أن يستفيد منها في دراسة تاريخ المنطقة بعد اخضاعها للفحص.

في إطار رحلته في منطقة الأغواط زار إضافة الى مدينة الأغواط كل من عين ماضي وتاجموت، وقدم ملاحظات هامة حول العمران، ومما ذكره أن مدينة الأغواط بنيت على منحدر هضبتين، في منتصف سهل رملي، يقطعه وادي مزي، محمية بسور حجري، ويحيط به حزام من الحدائق الرائعة، مثل جميع تلك الموجودة في واحات الصحراء. واهتم بإبراز التغييرات العمرانية التي عرفتها الأغواط بعد الاحتلال، فعدد المباني الفرنسية المتمثلة في فندق القائد الأعلى في الشمال، والدائرة العسكرية في الجنوب، والمكتب العربي ولواحقه الى الشرق، وزار على الطراز المغربي الى الغرب، ومنازل كبيرة على الطراز الفرنسي، يقع فيها مكتب البريد، والمقاهي والمحلات التجارية المحلية. أما المشفى فيقع أعلى تلة، وهو مبنى مربع كبير من الحجر الجيري، يعلوه سور محاط بفتحات على الشكل التركي، معظم شوارع الأغواط واسعة، حولها أقواس ذات شكل جميل، مبنية من الطوب المجفف تحت أشعة الشمس. (Souleillet, 1877, pp. 6-7)

ولدى زيارته لقصر تاجموت، فانه وصف عمارته، فذكر أن منازل مبنية من الحجر، أما شوارعها فهي ضيقة ومتعرجة، نظيفة قليلا، بنيت على رأس تلة حجرية، تتكون من مئة منزل، حولها سور بناه السكان، وقال بأن لديهم مهارة مقبولة في البناء، وأبدى دهشته من عمارته، لأنها تمت دون مخطط مرسوم مسبقا، ويكفي أن يكون المخطط موجود في رأس العامل الذي يبني، حيث يترجمه على الأرض، والقصر محاط بسور به فتحات وأبواب، تعلوه أبراج يفصل بينها مسافة محددة. (Souleillet, 1877, p. 38)

ولدى زيارته لعين ماضي سجل ملاحظات هامة حول عمارة هذا القصر، وأبدى إعجابه الشديد بعمران قصر عين ماضي، وهندسته الرائعة، وقدم وصفا مفصلا له، حيث بين ان مقر إقامة التجاني فخم جدا، وهذا ما يظهر من قوله: "المدينة على تلة، ووسط المدينة يحتله المسجد، حيث تبرز قبته والمآذن المرتفعة حد السماء فوق جميع البنايات الأخرى، صرح المرابطين يشكل مربعا كبيرا غير منتظم، وله نبل معين، ناتج عن كمية المباني التي يتكون منها، والمساكن الأخرى مخفية بواسطة السور، الذي يذكر بقصوره وأبراجه المربعة تلك الموجودة في قلاع العصور الوسطى، الحدائق المحيطة بهذا الجدار والوادي المتدفق في أسفله يمنح الحياة والجمال للمنظر الطبيعي بأكمله" (Souleillet, 1877, p. 67)

ذكر أن قصبة التجاني تتكون من سلسلة من المنازل الكبيرة المتعددة الطوابق، ذات البناء و الأسلوب المختلفين، التي تشمل مجموعة من المباني والأفنية، والحدايق والمحلات والمستودعات والمخازن، للحفاظ على كل ثروة المرابطين والهدايا التي تمنح لهم، ومخازن الحبوب والمؤن المختلفة واسطبلات لخيولهم وبغالهم، ومظلات لمركباتهم وعربات الخيول، وورشات للنجارة ومزرعة وطاحونة تهيمن على هذه المباني، وتحتوي على مساكن للعديد من موظفي المنزل، و المنازل المخصصة للمرابط وزوجاته، ومكتبة وغرف الاستقبال، والغرف المخصصة للضيوف، والكثير من الأفنية والمدرجات. (Souleillet, 1877, pp. 6-9)

كما أبدى بول سولييه إعجابه الشديد بعمران المسجد والضريح، وهندسته الرائعة، وخلال جولته في المدينة زار المسجد المتهوَّض في مكان صغير قرب قصر المرابط، تتوسطه قبة عالية جدا تنتهي بفانوس، تحت هذه القبة يوجد مقابر لاثنتين من أولاد أحمد التجاني، وهي مغطاة بقطع من القماش ذهبية و حريرية و علقت عليها أقمشة ذات ألوان زاهية، مضاء ثريات كبيرة مصنوعة من الحديد ومنحوتة مملوءة بالشموع المعطرة، ورسومات ذهبية تلمع باستمرار، غطى الفنانون المغاربة جدران المسجد ببلاط قادم من المغرب وتونس منقوشة بالجص و التي تشكل الأفاريز في السقف،...أما الجدران و الأرضيات فهي مغطاة ببلاط لامع قادم من ليفورنا ووضعت الحصائر والسجاد على الأرض من أجل الصلاة. (Souleillet, 1877, p. 63)

إضافة الى اهتمامه بعمارة القصور، فانه أعطى صورة واضحة عن المجتمع أيضا، ومما جاء في كتابه حول الموضوع نذكر:

- تناوله للتركيبة السكانية بالأغواط، فذكر أن المدينة يسكنها إضافة الى العنصر المحلي اليهود وبني مزاب والأوروبيين، وتحدث عن أنشطتهم الاقتصادية التي يمارسونها، كما تناول حياة الأوروبيين باختلاف جنسياتهم ومهامهم. (Souleillet, 1877, pp. 11-16) كما عرج على النظام القضائي الذي يخضع له كل من المسلمين والفرنسيين واليهود. (Souleillet, 1877, p. 10) وتحدث عن القمامة المقيمين في وادي مزي أصلهم ولغتهم وبعض صفاتهم. (Souleillet, 1877, p. 35)

إضافة الى تناوله لعلاقة البدو بالقصوريون ومن مظاهرها المصاهرة، كما تحدث عن صفات سكان القصور الخلقة والخلقية، وعن طبائعهم إضافة الى طعامهم. (Souleillet, 1877, p. 16) كما تحدث عن دوار الأربع وقدم معلومات عن قبيلة الأربع وقائدها ووصف الخيام والضيقة التي تلقاها من طرف القايد ذاكرة سلوكيات المضيف وحسن الاستقبال

الذي حضي به ووصف طعام الضيافة المقدم لهم والأواني المستعملة. (Souleillet, 1877, pp. 140-142) كما عالج موضوع الزواج المبكر، والعادات المرتبطة بالزواج، وتعدد الزوجات، والعلاقة بينهن وبين أزواجهن، وزواج الأهالي من الفرنسيات، كما وضح الدور الاجتماعي والاقتصادي للمرأة المتمثل في القيام بشؤون المنزل وتربية الأطفال وأعمال الصوف. (Souleillet, 1877, p. 19) وقدم معلومات حول بعض الأمراض المنتشرة بالمنطقة، وما يقابلها من أعشاب لعلاجها. (Souleillet, 1877, p. 131)

إضافة إلى ما سبق فإنه قدم تفاصيل قيمة حول جغرافية الأغواط، والمراعي الخضراء، والواحات الغنية، والضايات أو ما يعرف بالمنخفضات والجبال. (Souleillet, 1877, p. 38) ووصف الطريق من الأغواط إلى تاجموت، وأعجب بالغطاء النباتي، والحقول المزروعة حول حواف وادي مزي. (Souleillet, 1877, p. 30) كما قدم وصفا جغرافيا للطريق من الأغواط إلى غرداية، فذكر تضاريسها ونباتاتها، وقدم معلومات حول أسماء الضايات. (Souleillet, 1877, p. 143)

أما ما يتعلق بالجانب الاقتصادي، فقد اهتم بتقديم تفاصيل حول الحداثق، فوصف مناخا وتربتها خاصة الصالحة للزراعة، ونباتاتها كالأشجار المثمرة، والخضروات والورود الجميلة (Souleillet, 1877, pp. 5-6). والطيور التي تأوي إليها، وحقول القمح والشعير، ونظام الري بها، والتجارب الفرنسية المتعلقة بالزراعة، وتحدث عن المشاريع الزراعية الفرنسية، والمخططات التي يمكن استغلال الواحات من خلالها، خاصة مع وجود مناخ يشبه المناخ الأوروبي، وتوفر المياه الجوفية. (Souleillet, 1877, pp. 23-24,33) وأشار إلى محاولات التنقيب عن الفحم والمعادن قرب تاجموت. (Souleillet, 1877, p. 34) وأشار إلى المخازن التي يحتفظ فيها السكان بالموونة كالتمر والشعير والقمح والزيت والصوف. كما تناول العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، القائمة على المصالح المتبادلة بين القبائل البدوية والقصوريون. كما تحدث أيضا عن المهن والحرف التي يمارسها سكان المدينة، خاصة حرفة النسيج المتمثلة في نسيج كالملايس والزراي وغيرها. (Souleillet, 1877, pp. 18-21)

أما الرحالة جون بوميرول في كتابها الذي تحدثت فيه عن المرأة من الأغواط إلى عين صالح، والذي يعتبر دراسة أنثروبولوجية قيمة، لما تضمنته من معلومات حول المرأة بالصحراء الجزائرية، والتفاصيل الهامة التي احتواها حول جوانب متعددة، تتعلق بالتاريخ بالمجتمع، والثقافة والاقتصاد. وقد تناولت عمارة القصور بشكل مختصر، فعرفت القصر بأنه عبارة عن قرية محصنة، وهي ملاذ العرب غير الرجل أو البدو نصف المستقرين، محاطة بأسوار عادة، جدران المنازل رمادية، وكذلك الأزقة، بسبب لون

التربة التي صنعت منها. وبالقرب من القصر توجد واحات النخيل المسقية، أشارت الى أن البدو ينصبون خيامهم قرب جدران القصور، وتتوقف القوافل هناك، وتحول القصور الى مراكز للتبادل التجاري. وتحدثت عن أصل تسمية قصر الحيران، حيث ترجع التسمية الى الجدار أو السور الذي بناه أحد ملاك البعير، من أجل حماية صغار النوق، وتدعى محليا الحيران -من الولادة حتى ستة أشهر- لحمايتها من الظروف المناخية القاسية. (Pommerol, 1899, p. 82) وبمرور الوقت تحول الى مركز لاستقرار السكان، وبالنسبة لتاريخ تأسيسه فيرجع الى سنة 1801م بأمر من أحمد بن سالم لأغراض اقتصادية، وقدمت إحصاء لعدد الأسر المقيمة به، والذي يقدر ب 204 أسرة، تنتمي الى أربعة قبائل، ولكل منها شيخ يدير شؤونها، وهي النويرات والمطالعية وأولاد خليفة، والبدو الرحل الذين لهم علاقة بالقصر حيث يقيم بعض أقاربهم به، كما أن لديهم مخازن لتخزين مؤناتهم به. (Pommerol, 1899, p. 85)

تحدثت عن المكتب العربي المنتصب قرب القصر ودوره المتمثل في جمع الضرائب وتعيين القايد الوسيط بين الأهالي والإدارة الفرنسية كما ذكرت أن القصر يحتوي على مدرسة فرنسية

كما تناولت الحياة الاقتصادية كالحرف والمهن التي يمارسها السكان بالقصر وفي مقدمتها الزراعة ونظام الري والنسيج والحياة الاجتماعية بالقصر كالعلاقة بين السكان والسكان والقبائل البدوية وحياة المرأة ولباسها وزينتها ومواصفاتها الجسدية وطبائعها وكرم الضيافة الذي يقدمه الأرباع للمسافرين (Pommerol, 1899, p. 86)

كما تحدثت عن الحروب التي دارت بين القبائل هناك قبل وصول الأمير عبد القادر الى المنطقة وكذلك تحول القصر الى ميدان للصراع على السلطة بين الأعيان وموقفهم من نفوذ الأمير عبد القادر بها وتأثير كل ذلك على عمارة القصر. (Pommerol, 1899, p. 87)

الخاتمة:

من خلال دراستنا لكتب وتقارير الرحالة والعسكريين الفرنسيين خلال القرن 19م والذين اهتموا بالصحراء الجزائرية وزاروا مدنها وقصورها فانه يمكننا الوصول الى جملة من الاستنتاجات نوجزها في ما يلي:

-لقد اختلفت نظرة الرحالة والعسكريين الفرنسيين خلال القرن 19م لعمارة القصور الصحراوية بمنطقة الأغواط فتراوحت ملاحظاتهم وانطباعاتهم بين المدح والاستحسان الى الذم والاستقبح فالبعض أعجب بعمارة القصور واعتبر منشأتها متناغمة مع الطبيعة

وجميلة والبعض الآخر اعتبرها منشآت لا تقوم على تخطيط مسبق وواضح المعالم ولم تعجبه تلك المنشآت واعتبرها سيئة.

-أغلب تلك الدراسات احتوت على معلومات مفصلة وعميقة وصادقة الى حد ما وان كان بعضها مكرر اذ اعتمد بعضهم في جمع معلوماتهم على كتابات سابقين لهذا كثيرا ما نصادف معلومات متشابهة لدرجة التطابق ومنها ما تضمن معلومات جديدة ناتجة عن المشاهدة والملاحظة المباشرة وتكمن أهميتها في أنها تقدم صورة متكاملة لعمارة القصور في الفترة المدروسة فبعض الدراسات جاءت في سنوات متتالية.

-من بين قصور المنطقة التي كان لها الحظ الأوفر في الدراسات الأجنبية نجد مدينة الأغواط وقصر عين ماضي حيث كانا محل إقامة العديد من الرحالة وزيارة العديد من العسكريين كما كانا محل اهتمام باعتبارهما من أهم النقاط في المنطقة نظرا لأهميتهما السياسية والاستراتيجية والاقتصادية للسلطات الاستعمارية لهذا حظي كل منهما بدراسة مفصلة لعمارتها فاهتمت الدراسات بتخطيط البنايات والشوارع والأزقة وكذا المنشآت الهامة بهما مثل منازل الوجهاء وسادة وكذلك المنشآت الدفاعية التي كانت محل دراسة دقيقة من طرف هؤلاء باعتبارهم يكتبون من أجل تسهيل مهمة الاستعمار في السيطرة على هذه المناطق فكانوا جواسيس هدفهم خدمة سادتهم ومخططاتهم الاستعمارية.

-عقد بعض الرحالة والعسكريين في دراساتهم مقارنة بين العمارة المحلية والعمارة الفرنسية في مدينة الأغواط بعد احتلالها فنظروا الى الأولى نظرة ازدراء وسخرية ناتجة عن الأحكام المسبقة والاستعلاء التي طبعت كل الكتابات الاستشراقية بينما اعتبروا الثانية أصل التحضر وأنه يرجع للفرنسيين منح مدينة الأغواط عمارة أوروبية راقية وجميلة تختلف عن العمارة المحلية التي اشتهر بعضهم من مظهرها.

-تعتبر كتب الرحالة والعسكريين مصادر هامة لا غنى للباحث في التاريخ خاصة المحلي منه عنها، باعتبارها تتناول تفاصيل هامة عن مختلف جوانب الحياة في المجتمع الصحراوي الجزائري، ومنها موضوع عمارة القصور، في ظل غياب دراسات محلية تتناول هكذا مواضيع، وبهذا القدر من التفصيل، ويبقى على الباحث اخضاعها للنقد والتمحيص للاستفادة منها بشكل إيجابي يثري البحث العلمي.

التعليقات:

1-دوماس: ملشيور جوزيف أوجين، ولد في الأول من سبتمبر عام 1803. انضم كمتطوع إلى فوج سلاح الفرسان في عام 1822، وحصل على رتبة ملازم ثاني في عام 1827. اشتهر بذكائه وحماسه، وتم تعيينه كمدرّب برتبة نقيب للفرقة الثانية من صيادي إفريقيا سنة 1855. فور وصوله إلى الجزائر، شارك في الحملات العسكرية في معسكر وتلمسان، كما كرّس جزءاً كبيراً من وقته خلال تلك الفترة لتعلم اللغة العربية ودراسة عادات العرب. أقام في معسكر بين عامي 1837 و1839، وهو ما أتاح له فرصة

جمع معلومات تفصيلية عن حياة العرب وصفاتهم. في عام 1841، أوكلت إليه مسؤولية الشؤون العربية في وهران وحصل حينها على رتبة قائد سرب. تولى أيضاً إدارة الشؤون الأهلية في الجزائر وكتب بإسهاب عن العرب وعاداتهم. أثناء مروره بالأغواط سنة 1843، دَوّن تفاصيل عن قصورها وعادات سكانها في كتابه الصحراء الجزائري (Hugonnet.Ferd, 1860, pp. 174-175)

2-الأرباع: تتكون قبيلة الأرباع من أربع فرق وهي: المعامرة الحجاج أولاد زيد وأولاد صالح مواطنهم الألية بالزاب ووصلوا الى منطقة الأغواط سنة 1636م واستقروا بقطعانهم بجبل بوكحيل لوفرة الماء والكلاء حدث اصطدام بينهم وبين قبيلة أولاد يعقوب حيث انتهى بالأمر لمغادرة الأغواط أما الأرباع فقد انضمت اليهم قبائل أخرى ساهمت في زيادة قوتها ودعمها وهي قبيلة أولاد سيدي عطاء الله، الحرازية، العبادة صفران، المخاليف الجرب الزكازكة وأولاد بوزيان والرحمان وغيرهم (Capotrey, Anné1952, p. 138)

3-الحرازية: من القبائل البدوية في منطقة الأغواط تخيم بين سيدي خالد وتوقرت وبني مزاب والأغواط وتنقسم الى فرعين أساسيين وهما أولاد سيدي سليمان وأولاد سيدي يحيي يملكون قطعان الأغنام والابل وهم يهتمون بالتجارة والسلم أكثر من الحرب لكنهم لا يتأخرون عنها ان كان لابد منها وهم شجعان وقت الحاجة لكن ليس من طبعهم حب النزاع (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013 ، صفحة 72)

4-أولاد سيدي عطاء الله: سمو بذلك نسبة لجدهم الولي الصالح سيدي عطاء الله مضاربهم قرب تاجموت حيث ضريح جدهم وزاويتهم وهم رحالة يملكون قطعان الأغنام والبعر ويخزنون حبوبهم بتاجموت والحويطة (دوماس و تر: قندوز عباد ، 2013 ، صفحة 72)

5-أولاد يعقوب: سكنت الأغواط قبل مجيء قبيلة الأرباع اليها وبعدها انسحبوا الى تاجرونة وجبل العمور واستوطنوا منطقة عين سيدي علي وهما قسمان أولاد يعقوب الغابة وأولاد يعقوب الصحراء (Despois, 1957, p. 29)

6-الحاج العربي: جده هو الولي الصالح سيدي الحاج عيسى يعتبر أحد المنافسين لأحمد بن سالم على السلطة ووقعت بينهما خلافات حول حيازة بعض الملكيات نتج عنها طرد الحاج العربي من طرف أحمد بن سالم من الأغواط وتزامن ذلك مع مجيء الأمير عبد القادر للمناطق الجنوبية ولأنه يميل الى فئة المرابطين فقد جعل منه خليفته على الأغواط سنة 1837م ثم عزله بعد أن أبدى ضعفا في السيطرة على الأمور 1839م وأعاد تعيينه مرة أخرى وقد دار بينه وبين أحمد بن سالم صراعا مريرا كانت كل قصور منطقة الأغواط تقريبا مسرحا له ومما رجع كفة ابن سالم هو تحالف محمد الصغير معه وانتهى الأمر بهزيمته وتفرق رجاله من حوله بين قتل وأسير وفار بنفسه وأعدمه بن سالم في قصر الحبران 1843م (Mangin, 1893, p. 24)

6-أحمد بن سالم: والده معمر بن زعنون ينتمي لعائلة عريقة في الحكم حيث تولى أفرادها حكم الأغواط منذ عهد الأتراك عرف بحبه للسلطة وطموحه الجموح وقد استطاع التأثير على السكان وأمسك بزمام السلطة بمفرده في الأغواط سنة 1828م وبفضل قوة شخصيته استطاع أن يوفر الأمن في المنطقة لبعض الوقت كما حقق نجاحا تجاريا معتبرا وقد انخرط في صراع مرير مع منافسه الحاج العربي زعيم أولاد سرغين وخليفة الأمير عبد القادر على الأغواط حيث لم يرضى بهذا التعيين لأنه كان يرى أنه أحق بالمنصب من الحاج العربي خاصة أن بن سالم كان مدعوما من زعيم التجانية محمد

- الصغير التجاني وقد اتصل بالفرنسيين وتحالف معهم مقابل تعيينه خليفة على منطقة الأغواط وكان له ما أراد سنة 1844م واستمر في منصبه حتى تم عزله سنة 1852م (Cte.H.D'ideville, 1882, p. 139)
- 7- **أحمد الصغير التجاني:** هو الابن الثاني للشيخ أحمد التجاني ولد سنة 1802م اسمه محمد الحبيب وعرف بالصغير توفي والده وهو في الثالثة عشر من عمره سنة 1815م تزعم الطريقة التجانية بعد قتل أخيه محمد الكبير في البداية كانت علاقته حسنة مع الأمير عبد القادر ثم تحولت الى سيئة ميزها العداء والصراع منذ سنة 1837م نتج عنها حصار الأمير لقصر عين ماضي سنة 1838م وقد وقف أحمد بن سالم الى جانب التجاني وانتهى الأمر بخروجه من عين ماضي الى الأغواط (مفتاح، ب ت، صفحة 192)
- 8- **ماري مونج:** قائد قسمة التيطري كلف بقيادة حملة عسكرية استكشافية انطلقت من شهر أفريل إلى شهر جوان 1844م اخترق خلالها مع قواته الصحراء الصغرى من جبل الصحاري إلى جبل زكار كان الهدف منها إخضاع القبائل البدوية والقصور في هذه المناطق وصل التي تاجموت في 21 أفريل وفي الغد أرسل الكولونيل سانت أرنو الى عين ماضي لمقابلة التجاني وإخضاعه لضريبة وفي اليوم التالي دخل عين ماضي بقواته وحدد الضريبة المفروضة على القصر (Monge, 1846, pp. 1-10)
- 9- **تروملي:** ضابط تدريب عام، وعضو مراسل في الجمعية التاريخية الجزائرية، خلال مهماته العسكرية التي قادته إلى جنوب مقاطعة الجزائر سنة 1864م فانه دون معلومات مفصلة و دقيقة عن منطقة الأغواط بقصورها الرئيسية، بحيث درس كل قصر على حدى، دراسة جغرافية و تاريخية وثقافية و اجتماعية و اقتصادية و سياسية و عسكرية، سجل بدقة عالية كل الملاحظات و الانطباعات و الأحداث التي شهدتها أو سمع عنها، قدم صورة واضحة عن خصائص المجتمع في هذه المناطق و بين طبيعة نظام الحكم فيها و وضح إمكانياتها الاقتصادية مر بعين ماضي في صيف 1864م (Trumelet, 1892)
- 10- **محمد بن عبد الله:** ترجع أصوله الى عائلة أولاد سيدي الشيخ ولد بتلمسان سنة 1805م كان يقابل في صفوف الأمير عبد القادر وقد اعتبرته السلطات الفرنسية عنصر تهديد لها وبعد عودته من فريضة الحج سنة 1848م استأنف نضاله ضد الاحتلال وقد وصل الى الأغواط سنة 1852م حيث تعزز موقفه بانضمام ابن ناصر بن شهرة اليه وقد زادت مخاوف فرنسا منه واعتبرته خطرا يهدد مصالحها في المنطقة بأكملها وقررت ابعاده قبل أن يستفحل تأثيره على السكان ولكنه دخل مدينة الأغواط مع عدد من المقاومين وبعد سقوط المدينة خرج منها دون أن ينتبه له الفرنسيين (Colomieu, 1862, p. 165)
- 11- **أحمد التجاني:** وُلد في عين ماضي عام 1737م والده محمد الشريف، هاجر إلى عين ماضي قادماً من المغرب. تلقى تعليمه على يد والده في العلوم الأساسية والفرعية، كما تعلم العلوم الشرعية، اللغوية، والأدبية. بالإضافة إلى ذلك، قرأ العديد من كتب التصوف واطلع على سير رجاله. خلال الفترة الممتدة بين عامي 1772 و1773، أدى فريضة الحج وهناك التقى بشيوخ طرق صوفية مختلفة، مثل الطريقة الدرقاوية والطريقة القادرية. بعد عودته إلى عين ماضي بين عامي 1777 و1778م، شرع في تأسيس الطريقة التجانية مستفيداً من معارفه وخبراته السابقة. جذب حوله عدداً من الأتباع المخلصين، وسرعان ما بدأت طريقته في الانتشار (Rinn, 1884, pp. 417-418)
- 12- **بليسيي:** هو جول هنري فرانسوا ادموند بليسيي ولد في تورنو في 1 جانفي 1798م دخل الخدمة في الفوج الرابع من حراس الشرف و في 16 جويلية 1813م تخرج من هذا الفوج و حصل على رتبة ملازم ثاني في صيادي فوكليس . سنة 1821 حصل على رتبة ملازم و خدم على التوالي في سلاح الفرسان والمشاة و المدفعية قاد فرقة خلال احتلال الجزائر حصل على رتبة نقيب في 8 سبتمبر 1830م ترأس المكتب

العربي في الجزائر و تولى ادارة الشؤون العربية و ظل في هذا المنصب حتى 1839م (Faidherbe, Année 1857, pp. 419-422)

13-سيدى الحاج عيسى: من الاولياء الصالحين المعروفين بتقواهم، واشتهر أكثر في الأغواط، أصله من تلمسان، وجاء الى الأغواط حوالي سنة 1662م، أقام بقصر بن بوطه وفي عهده كانت الأغواط تضم عدة قصور تميزت العلاقات بينها بالصراع فيما بينها إضافة الى أنها كانت مهددة بهجمات القبائل البدوية من حين لآخر لهذا أشار على سكانها بالاتحاد وإقامة سور لحماية مدينتهم ويرجع له الفضل في التأسيس الحقيقي للأغواط 1698م (Trumelet, 1892, pp. 115-115,158)

14-ابن ناصر ابن شهرة: تولى قيادة الأربع سنة 1846م وينحدر من فرقة أولاد سي عيسى من عرش المعامرة المنتمية الى قبيلة الأربع تربي على الشجاعة والكرم والشهامة كره الاحتلال وأعلن عداؤه له وقد حاول القادة الفرنسيين مساومته ولكن دون جدوى فقد كان مصمما على رفض الاحتلال ومقاومته واضم الى محمد بن عبد الله. (بوقرين، 2020، الصفحات 142-143)

15-أوجين فرومنتان: ولد بمدينة لاروشيل الفرنسية في 24 أكتوبر 1820م، أمضى فرومنتان فترة دراسته بكونج روابال بمدينة لاروشيل، سنة 1839 اتجه إلى باريس لدراسة الحقوق، و تحصل على شهادة الليسانس 1843م تخلى بعدها نهائيا عن دراسة الحقوق و تابع دروسا في الرسم استجابة لموهبته، قام بثلاث رحلات إلى الجزائر آخرها كان سنة 1852م و خلالها زار الأغواط التي وصلها في 3 جوان 1852م و انطلقا منها الى مدينة عين ماضي (عطاشي، 2010، صفحة 16)

16-هاينريش فون مالستان: ولد سنة 1826م بمدينة دريسدن الألمانية، درس الحقوق و تعلم اللغات الشرقية، جاء إلى الجزائر سنة 1857م وقام برحلاته فيها بعد هذه السنة، و كتبه ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا أحد المصنفات المهمة في تاريخ الجزائر، و استفاد في الحديث عن الجزائر و أحوالها و مناطقها من الغرب إلى الوسط و الشرق ووصف مدنها و استعرض تاريخها و أساليب الحياة بها و منها منطقة الأغواط التي زارها في حدود سنة 1858 و خلال إقامته في الأغواط زار عين ماضي (مالستان و ، تر: دودو، 1980، الصفحات 3-8)

17-بول سوليه: ولد بنيم بتاريخ 29 أبريل 1842م ومنذ صغره كان لديه شغف كبير بالسفر والمغامرة الى أماكن مجهولة لاسيما إفريقيا زار الجزائر ثم تونس عامي 1865 و 1866م وفي سنة 1870م انضم الى الجيش الفرنسي كان حلمه السيطرة على الأراضي الشاسعة في غرب إفريقيا حيث كان يؤمن بالتوسع السلمي من خلال التوسع التجاري توفي متأثرا بالحمى في شهر سبتمبر 1888 (faucon, 1889, p. 582)

قائمة المراجع:

بوقرين عيسى. (سبتمبر، 2020). «ابن ناصر بن شهرة رائد من رواد المقاومة في الجنوب الشرقي الجزائري 1850-1875». مجلة دراسات اجتماعية، العدد 2، ص 145-168.

دوك دي دوماس، و فوزية تر: قندوز عباد . (2013). الصحراء الجزائرية. الجزائر: غرناطة للنشر والتوزيع.

هاينريش فون مالستان ، تر: دودو أبو العيد. (1980). *ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا* (المجلد 3). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.

مفتاح عبد الباقي. (ب ت). *أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه*. الجزائر: الوليد للنشر.

عطاشي عيسى. (2010). *صورة الجزائر في أدب الرحالة الفرنسي أوجين فرومنتان*. الجزائر: مطبعة بن سالم بالأغواط.

Capotrey, R. (Anné1952). "Transformarions, Récents Dans une Tribu du sud Oranais". *Annales de Géographie*, V61.

Colomieu, L. C. (1862). *Voyage dans le Sahara Algerin de Geryville a Ouargla*.

Cte.H.D'ideville, L. (1882). *le Maréchal Bugeaud 1784-1849*,T2. paris: Librairie de Fimin Diot et Cie.

Despois, J. (1957). *le Djebel Amour*. paris: Presses Universitaires de France.

Faidherbe, M. L.-C. (Année 1857). "Notice sur M.Pellissier". V2.

faucon, N. (1889). *L'ivre D'Or de L'algerie*. Paris: challamel et Cie Editeurs.

Fromentin.E. (1886). *Sahara et sahel*. Paris: Libraire Plon,E. Plon .Nourrit et Cie ,Imprimeurs éditeurs .

Fromentin.E. (1904). *Un Eté dans le Sahara* . Paris: Libraire Plan Plon-Nourrit et CieImprimeurs-éditeurs.

Hirtz, G. ((s.d)). *L'Algérie Nomade et Ksourienne 1830-1954*. Alger: Diffusion, P. Tacussel.

Hugonnet.Ferd. (1860). *Français et Arabes en Algerie*. Parie: Ferd.Sartoius et Challamel.

Mangin. (1893). *notes sur l'histoire de Laghouat*. *Revue africaine*, N°38.

Monge, M. (1846). *Expédition de Laghouat dirigée aux Mois de Mai et Juin*. Alger: limprimerie de A.bourget.

- Mongin.E. (1895). Note sur histoire de laghouat. Alger: Adolphe Jordan, Libraire Editeur.
- Pommerol, J. (1899, Février 5). les Ksours du Sahara. le Monde Illustré, N2184.
- Rinn, L. (1884). Marabouts et Khouans. Alger: Adolphe Jourdan Libraire Edition.
- Souleillet, P. (1877). L'Afrique occidentale :Algérie,Mزاب, Tildikelt. Paris: Imprimerie de F.seguinAiné.
- Trumelet. (1892). L'Algérie Légendaire. Alger: LibrairieAdolphe Jourdan.
- Trumelet.C. (1879). Histoire de L'Insurrection dans le Sud de la Province D'Alger en1864. Alger: typographie adolphe jourdan.